الفجر الصادق

عبد الملك القاسم

مصدر هذه المادة:





دار القاسم

مدخل

قال أحمد بن عاصم:

هذه غنيمة باردة، أصلح ما بقي من عمرك،

يغفر لك ما مضى.

المقدمة

الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين.

وبعد:

أقدم للإخوة القراء الجزء الثامن من سلسلة «أين نحن من هؤلاء؟!» تحت عنوان: «الفجر الصادق»، وهو زمن مشرق ناصع في حياة المسلم.

إنه فجر صادق، وهل هناك أصدق ممن صدق الله وصدق في عودته؟

إذا سلك من مسالك الشيطان مدخلاً وأجلب عليه بخيله ورجله، تذكر منتبهًا من الغفلة مستدركًا للتوبة.

إنها إشراقات تبدد ظلام المعصية وتزيل غشاوة الذنب.

فجر تبدأ معه رحلة العودة إلى الله بقلوب منكسرة، ودموع منسكبة وجباه خاضعة... حتى تطأ الأقدام أولى عتبات الآخرة... ورجاء الآية يخاطب شغاف القلوب ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾.

وحديث الرسول ﷺ ملء السمع والبصر: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب**

مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها».

جعلنا الله ممن إذا أذنب استغفر وإذا زل تاب وثاب ورزقنا الإخلاص في القول والعمل.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم.

بسم الله الرحمن الرحيم

خلق الله الإنسان للطاعة والعبادة، وفتح له باب التوبة والإنابة، يستدرك بها ذنوبه، ويمسح بها تقصيره، ويصلح بها زلاته.

فالتوبة واجبة على الدوام، لأن الإنسان لا يسلم من معصية، ولا يخلو من نقص إنما الخلق يختلفون في المقادير وقد أمر الله – عز وجل– بالتوبة، فقال: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾** [البقرة: ٢٢٢].

وفي آيات كثيرة حث على التوبة والرجوع والأوبة...

قال –جل وعلا–: **﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [النور: ٣١].

وهذا نبي الهدى والرحمة يقول في الحديث الشريف: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة**»[(١)].

وقال ﷺ: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابين**»[(٢)].

وانظر إلى عظيم فضل الله –جل وعلا– على التائب العائد قال ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم.

(٣) رواه ابن ماجه والطبراني.

وأبواب السماء مشرعة للتائبين، مفتوحة للعائدين، فإن هناك من يعرض عن هذه الأبواب.. ويترك هذه الأسباب قال ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى** قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[1].

فهذا الحديث بشارة لجميع المسلمين بالجنة إلا صنفًا منهم لا يريد دخولها، لا زهدًا فيها؛ ولكن جهلاً بالطريق الموصلة إليها، وتراخيًا وتكاسلاً عن دخولها وتفضيلاً لهذه المتع الدنيوية الزائلة على تلك النعم الخالدة في الجنة[2].

يا من يذنب ولا يتوب، كم قد كتبت عليك ذنوب خل الأمل الكذوب، فرب شروق بلا غروب، وآسفى أين القلوب؟ تفرقت بالهوى في شعوب ندعوك إلى صلاحك ولا تئوب واعجبا الناس ضروب، متى تنتبه لخلاصك أيها الناعس؟ متى تطلب الأخرى يا من على الدنيا تنافس؟ متى تذكر وحدتك إذا انفردت عن موآنس؟ يا من قلبه قد قسا وجفنه ناعس، يا من تحدثه الأماني.. دع هذه الوساوس.

وانظر إلى قول الحسن ولعل لنا نصيب منه: يا ابن آدم ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة[3].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) واحات الإيمان: ١/١٢٥.

(٣) الزهد: للإمام أحمد، ٢٤٢.

إني بليــــــت بـــــأربع يــــــرمينني
بالنبـــل قـــد نصـــبوا علـــي شـــراكا
إبلـــيس والـــدنيا ونفســـي والهـــوى
مـــن أيـــن أرجـــو بينـــهن فكاكـــا
يـــا رب ســـاعدني بعفـــو إنـــني
أصـــبحت لا أرجـــو لهـــن ســـواكا[1]

قال حميد الطويل لبعض إخوانه: عظني، فقال: يا أخي إذا عصيت وظننت أنه يراك فقد تجرأت على عظيم، ولكن بجهلك تظن أنه لا يراك.

وقال رجل لوهيب بن الورد: عظني؟ فقال: اتق أن يكون الله أهون الناظرين إليك[2].

أخي المسلم: لو لحظك مسئول أو رجل حسبة وأنت تهم بفعل زلة لتوقفت تعد الخطى وتستثقل فعل المعصية، كيف والله – جلا وعلا– يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ مطلع على كل صغيرة وكبيرة. ولكنها قسوة القلوب وفساد النفوس، وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، وما خلقت النار إلا لإذابة القلوب القاسية، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، فإذا قسا القلب قحطت العين.

(١) التذكرة: ٤٧٥.
(٢) جامع العلوم: ١٩٥، حلية الأولياء: ٨/١٤٢.

أخي الحبيب:

قسوة القلب من أربعة أشياء: إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل والنوم والكلام والمخالطة، كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجح فيه المواعظ.

ومن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته، فالقلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها، القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها، شغلوا قلوبهم بالدنيا، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهورة[(١)].

وذاك الداء وهذا الدواء ولكن:

يــــا مـــــن تمتـــــع بالـــــدنيا وزينتـــــها
ولا تنـــــام عـــــن اللـــــذات عينـــــاه

أفنيـــت عمـــرك فيمـــا لســـت تدركـــه
تقـــــول لله مـــــاذا حـــــين تلقـــــاه؟[(٢)]

كان الحسن كثيرًا ما يقول: يا معشر الشباب عليكم بالآخرة فاطلبوها، فكثيرًا رأينا من طلب الآخرة فأدركها مع الدنيا، وما

(١) الفوائد: ١٢٨.
(٢) صفة الصفوة: ٢/٥١٦.

رأينا أحدًا طلب الدنيا فأدرك الآخرة مع الدنيا[(١)].

وليس للعبد -يا أخي- مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد، اشتغل به في الحياة يكفك ما بعد الموت[(٢)].

تعصـــي الإلــه وأنـــت تظهـــر حبـــه
هـــــذا لعمـــــري في القيـــــاس بـــــديع
لـــو كـــان حبـــك صـــادقًا لأطعتـــه
إن المحـــــب لمـــــن يحـــــب مطيـــــع[(٣)]

أخي المسلم:

القلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى[(٤)].

فإياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً، ولأيامك وأنفاسك أمدًا، ومن كل ما سواه بد، ولا بد لك منه[(٥)].

سبحان الله رب العالمين: لو لم يكن في ترك الذنوب

---

(١) الزهد للبيهقي ٩.
(٢) الفوائد: ٩.
(٣) الزهد للبيهقي: ٣٢٩.
(٤) الفوائد: ١٢٩.
(٥) الفوائد: ١٢٩.

والمعاصي إلا إقامة المروءة وصون العرض وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قوامًا لمصالح الدنيا والآخرة ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس وكثرة الدعاء له والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس، انتصارهم وحميتهم له إذا أوذي وظلم، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن عنه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له، ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه

بتوبته، فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا.

أما في الآخرة: فإنه إذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة، ينعم فيها إلى يوم القيامة.

فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين[1].

يـــا أيهـــا الغافـــل جـــد في الرحيـــل
وأنـــــــت في لهـــــــو وزاد قليـــــــل
لـــو كنـــت تـــدري مـــا تلاقـــي غـــدًا
لـــذبت مـــن فـــيض البكـــاء والعويـــل
فـــأخلص التوبـــة تحظـــى بهـــا
فمـــا بقـــي في العمـــر إلا القليـــل
ولا تـــــنم إن كنـــــت ذا غبطـــــة
فـــإن قـــدامك نـــــوم طويـــــل[2]

قالت عائشة- رضي الله عنها-: أقلوا الذنوب، فإنكم لن تلقوا الله –عز وجل- بشيء أفضل من قلة الذنوب.

---

(١) الفوائد: ١٩٨ باختصار.
(٢) الزهر الفائح: ١٩.

وقال مورق العجلي: ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا مثل رجل في البحر على خشبة فهو يدعو: يا رب يا رب، لعل الله –عز وجل– أن ينجيه[1].

ولهذا الأمر ومن شدة الخوف وطمعًا في ما عند الله.

كان الرسول ﷺ سيد الكل، ثم أنه قام حتى ورمت قدماه..

وكان أبو بكر –رضي الله عنه– شجي النشيج[2].

وكان في خد عمر –رضي الله عنه– خطان من آثار الدموع.

وكان عثمان –رضي الله عنه– يختم القرآن في ركعة.

وكان علي –رضي الله عنه– يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع ويقول: يا دنيا غري غيري!

وكان سعيد بن المسيب ملازمًا للمسجد فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة[3].

فيا أخي الكريم اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن ،وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب فإنه لا قلب لك[4].

فحـــــيهلا إن كنـــــت ذا همـــــة فقـــــد

حدا بـــك حـــادي الشـــوق فـــاطو المـــراحلا

---

(١) حلية الأولياء: ٢/٢٣٥، صفة الصفوة: ٣/٢٥٠.

(٢) يبكي بكاء مؤثرًا تنقطع له النفس.

(٣) صيد الخاطر: ١٠٦.

(٤) الفوائد: ١٩٥.

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة، قد رفع لك علم، فشمر إليه فقد أمكن التشمير واجعل سيرك بين مطالعة منته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير[1].

اتخـــــذ طاعــــــة الإلـــــــه ســــــبيلا

تجــــد الفــــــوز بالجنــــــان وتنجــــــو

واتـــــــرك الإثم والفــــــواحش طـــــــرًا

يؤتـــــك الله مـــــا تـــــروم وترجـــــو[2]

قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي.. التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله -عز وجل- مع الإفراط.

ترجـــو النجـــاة ولم تســـلك مســـالكها

إن الســـفينة لا تجـــري علـــى اليـــبس[3]

قال يحيى بن معاذ -رضي الله عنه-: من أحب الجنة انقطع عن الشهوات، ومن خاف النار انصرف عن السيئات ونحن في غفلة.. ونجانب باب التوبة، حالنا كما قال الحسن عندما سأله

---

(١) عدة الصابرين: ٣٣٨.
(٢) طبقات الحنابلة: ٤/١٧٧.
(٣) تزكية النفوس: ١١٤.

رجل: يا أبا سعيد: كيف أصبحت؟، قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألني عن حالي؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر، فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل إنسان منهم بخشبة علي أي حال يكون؟ قال الرجل: على حالٍ شديدة، قال الحسن: حالي أشد من حالتهم[1].

عـــيني هــــلا تبكيــــان علـــى ذنــــبي
تنــــاثر عمــــري مـــــن يـــــدي ولا أدري
أنـــــت في غفلـــــة وقلبـــــك ســــــاه
ذهـــب العمـــر والـــذنوب كمـــا هـــي[2]

أخي... أهل الجهال من آثر عاجلاً على آجل، لا يأمن سوء مغبته، فكم قد سمعنا عن سلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه في شهواتها، ولم ينظر في حلال وحرام، فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما التذ، ولقي من مرير الحسرات ما لا يقاومه ولا ذرة من كل لذة، ولو كان هذا فحسب لكفى حزنًا، كيف والجزاء الدائم بين يديه؟

فالدنيا محبوبة للطبع لا ريب في ذلك، ولا أنكر على طالبها ومؤثر شهواتها، ولكن ينبغي له أن ينظر في كسبها ويعلم وجه أخذها، لتسلم له عاقبة لذته، وإلا فلا خير في لذة من بعدها النار.

---

(١) الإحياء: ٤/١٩٧.
(٢) مكاشفة القلوب: ٣٤.

وهل عد في العقلاء قط من قيل له: اجلس في المملكة سنة ثم نقتلك؟ هيهات بل الأمر بالعكس، وهو أن العاقل من صابر مرارة الجهد سنة بل سنين ليستريح في عاقبته[(١)].

قال **الحسن**: والله ما صدق عبد بالنار إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وإن المنافق لو كانت النار خلف هذا الحائط لم يصدق بها حتى يتجهم عليها.

تصـــل الـــذنوب إلى الـــذنوب وترتجـــي
درج الجنـــــان لـــــدى النعـــــيم الخالـــــد
ولقـــد علمنـــا أخـــرج الأبـــوين مـــن
ملكوتهـــا الأعلـــى بـــذنب واحـــد[(٢)]

ونحن نسير في هذه الدنيا.. لا نرى لها نهاية ولا للحياة توقف حتى يفجأنا أمر الله وقدره... نؤخر التوبة... ونؤجل العمل...

قال **الحسن البصري**: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل[(٣)].

وقال **الربيع بن خثيم** لأصحابه: تدرون ما الداء والدواء والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء

(١) صيد الخاطر: ٢٣٩.
(٢) الجواب الكافي: ١٤٢.
(٣) الجواب الكافي: ٣.

أن تتوب فلا تعود[1].

وحال الكثير منا اليوم كما قال عنه أحمد بن حرب: إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس، ثم لا يؤثر الجنة على النار[2].

نعرف اليوم القائض من المعتدل والبارد من الحار.. ونشكو إلى بعض من حر هذا اليوم وشدته، رغم أننا تحت ظلال وارفة، ومكيفات باردة، ولا نفكر في نار حرها شديد وقعرها بعيد، وها هو باب التوبة مشرع الأركان فأين نحن منه؟!

يقول **إبراهيم بن أدهم**: من أراد التوبة فليخرج من المظالم، وليدع مخالطة الناس، وإلا لم ينل ما يريد[3].

وحذر **أبو الوفاء بن عقيل** بقوله: احذر ولا تغتر، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة نارًا على من غلها وقد قتل شهيدًا[4].

فلنسابق أخي إلى التوبة والأوبة... باب مفتوح مشرع لا يردنا حاجب ولا يقصينا طلب، بل يفرح الله بتوبة أحدنا. ويتجاوز عن سيئاته.

قال **أبو بكر بن عبد الله المزني**: من مثلك يا ابن آدم؟ خلي

---

(١) صفة الصفوة.

(٢) الإحياء: ٤/٥٦٨.

(٣) السير: ٧/٣٨٩.

(٤) الجواب الكافي: ٦٩.

بينك وبين المحراب والماء، كلما شئت دخلت على الله -عز وجل- ليس بينك وبينه ترجمان[1].

أخي.. اعلم أن الجزاء بالمرصاد إن كانت حسنة أو كانت سيئة ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح، وربما جاءت العقوبة بعد مدة[2].

خـــــل الـــــــذنوب صـــــــغيرها
وكبيرهــــــــــا فهــــــــو التقــــــــى

واصـــــــنع كمــــــاش فــــــوق أرض
الشــــــوك يحــــــذر مــــــا يـــــرى

لا تحقــــــــــــــرن صـــــــــغيرة
إن الجبــــــــال مـــــــن الحصــــــــى[3]

قال **أبو حازم سلمة بن دينار**: قاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك[4].

أخي التائب:

الشرك والكذب والرياء شجرة في القلب ثمرها في الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة

---

(١) صفة الصفوة: ٣/٢٤٩.
(٢) صيج الخاطر: ٥٩٣.
(٣) جامع العلوم والحكم: ١٩٢.
(٤) حلية الأولياء: ٣/٢٣١.

الزقوم والعذاب المقيم(١).

فسارع أخي بخطى العزيمة.. وارفع نفسك الكريمة... فإنها نفس كالطفل تقبل وتدبر وتعصي وتطيع.

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

إن ترك الشهوات لله... وإن أنجى من عذاب الله وأوجب الفوز برحمته فذخائر الله وكنوز البر ولذة الأنس والشوق إليه والفرح والابتهاج به، لا تحصل في قلب فيه غيره، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم، فإن الله سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهمته متعلقة بغيره، وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقرًا دون الله، والعز ذلاً دونه، والذل عزًا معه، والنعيم عذابًا دونه، والعذاب نعيمًا معه(٢).

عن **طلق بن حبيب** قال: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد وإن نعم الله أكثر من أن تحصى ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين(٣).

وقال **بشر**: لو تفكر الناس في عظمة الله، ما عصوا الله عز وجل(٤).

---

(١) الفوائد: ٢١٥.
(٢) الفوائد: ٢٥٢.
(٣) السير: ٤/٦٠٢.
(٤) الإحياء: ٤/٤٥١.

فـــوا عجبًـــا كيـــف يعصـــى الإلـــه
أم كيـــــــف يجحـــــــده جاحـــــــدُ؟
ولله في كـــــــــــل تحريكـــــــــــة
وتســـــــكينة أبـــــــدًا شـــــــاهد
وفي كـــــل شـــــيء لـــــه آيـــــة
تـــــدل علـــــى أنـــــه واحـــــد[1]

كان **وهب بن الورد** يقول: خف الله على قدر قدرته عليك واستحي منه على قدر قربه منك.

أخي المذنب –وكلنا كذلك-، قال هلال بن سعد:لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت[2].

إنه الله الواحد الأحد مدبر الكون خالق كل شيء.

يـــا مـــن يـــرى مـــد البعـــوض جناحهـــا
في ظلمـــة الليـــل البـــهيم الأليـــل
ويـــرى منـــاط عروقهـــا في نحرهـــا
والمـــخ في تلـــك العظـــام النحـــل[3]

سبحان الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا... لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء... خلق كل شيء وأحصى

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٢٥.
(٢) الجواب الكافي: ٩٥.
(٣) شذرات الذهب: ٤/١٢١.

كل شيء.

قال **مطرف**: من أحب أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده.

وكان **الحسن بن عبد العزيز** يقول: من لم يردعه القرآن والموت، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع[1].

وتأمل أخي الحبيب في قول **ابن عباس**: خوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب إذا فعلته[2].

إذا ما خلوت الـدهر يومًـا فـلا تقـل
خلـوت ولكـن قـل علـي رقيـب
ولا تحسـبن الله يغفـل سـاعة
ولا أن مـا تخفيـه عنـه يغيـب
ألم تـر أن اليـوم أسـرع ذاهـب
وأن غـدًا للنـاظرين قريـب[3]

قال **الحسن**: إن المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله -عز وجل- وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من

(١) طبقات الحنابلة: ١/١٣٥.
(٢) جامع العلوم والحكم: ٤٣.
(٣) الإحياء: ٤/٤٢٢.

غير محاسبة، إن المؤمن يفجؤ الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا مالي ولهذا؟ والله لا أعود لهذا أبدًا إن شاء الله، إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله -عز وجل- يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه(١).

ولو تفكرنا في ذلك وأنزلنا أنفسنا موقف الحساب لعملنا ولتبنا إلى الله -عز وجل- فنحن في زمن التوبة... وفي طريق الأوبة في دار أفسح الله لنا فيها أفلا نعود من قريب؟!

قال **وهب بن منبه**: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط... إلا عمل(٢).

فلتكن أخي من أهل العمل، ولا تكن من أهل الأمل.. فإن أعجب العجائب سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك عما قد خبئ لك، تغتر بصحتك، وتنسى دنو السقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم، لقد أراك مصرع غيرك، وأبدى مضجع سواك قبل الممات مضجعك(٣).

---

(١) صفة الصفوة: ٣/٢٣٤

(٢) الإحياء: ٤/٤٥١.

(٣) صيد الخاطر: ٢٦.

هذا **شميط بن عجلان**: في نداءات خالصة ينادي... أيها المغتر بطول صحتك! أما رأيت ميتًا قط من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المهلة! أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدة؟ أبالصحة تغترون؟! أم بطول العافية تمرحون؟! أم بالموت تمنئون؟ أم على ملك تجرئون؟

إن الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك، أما علمت أن ساعة الموت: ذات كرب شديد، وندامة على التفريط؟ رحم الله عبدًا عمل لساعة الموت، رحم الله عبدًا عمل لما بعد الموت، رحم الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت[(١)].

أخي إن من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله، زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في قربه من الناس، وقضاء حوائجهم، والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه، زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله زيد في فخره، واحتقاره للناس، وحسن ظنه بنفسه وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه وكلما زيد في ماله، زيد في بخله وحرصه، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في كبره وتيهه.

---

(١) صفة الصفوة: ٣/٣٤٧.

وهذه الأمور: ابتلاء من الله، وامتحان يبتلي بها عباده، فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام[(١)].

فانظر أين أنت؟ وأين موضع قدمك؟ واسمع وصية الإمام مالك وهو يوصي رجلاً قال: إذا هممت بأمر في طاعة الله فلا تحسبه إن استطعت فواقًا حتى تمضيه، فإنك لا تأمن الأحداث، فإذا هممت بغير ذلك، فإن استطعت أن لا تمضيه فافعل، لعل الله يحدث لك تركه، ولا تستحي إذا دعيت لأمر ليس بحق، أن تقول: قال الله تعالى في كتابه: «**والله لا يستحي من الحق**». وطهر ثيابك، ونقها عن معاصي الله؛ وعليك بمعالي الأمور وكرائمها، واتق رذائلها وما سفسف منها، فإن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها، وأكثر تلاوة القرآن، واجتهد أن لا تأتي عليك ساعة من ليل أو نهار، إلا ولسانك رطبًا من ذكر الله، ولا تمكن الناس من نفسك، واذهب حيث شئت[(٢)].

وقد قال **عمر بن عبد العزيز** في خطبته: إن لكل سفر زادًا لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه، ترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه، ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، وكم رأيت، ورأيتم من كان

(١) الفوائد: ٢٠١.

(٢) ترتيب المدارك: ١/١٨٧.

بالدنيا مغترًا، وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يداوي كلما إلا أصابه جرح من ناحية أخرى... فكيف يفرح؟[(١)].

نمـــوت ونبلـــى غـــير أن ذنوبنـــا
إذا نحـــن متنـــا لا تمـــوت ولا تبلـــى

ألا رب عيـــــــنين لا تنفعانـــــــه
ومـــا تنفـــع العينـــان مـــن قلبـــه أعمـــى

أخي التائب:

احذر نفسك، فما أصابك بلاء قط إلا منها، ولا تمادنها، فو الله، ما أكرمها من لم يهنها، ولا أعزها من لم يذلها، ولا جبرها من لم يكسرها، ولا أراحها من لم يتعبها، ولا أمنها من لم يخوفها، ولا فرحها من لم يحزنها[(٢)].

قال أبو بكر بن عياش: قال لي رجل مرة، وأنا شاب: خلص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة، فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبدًا[(٣)].

أخي التائب: وأنت تسير في ركاب التائبين... تحط رحالك -إن شاء الله- في جنات عدن.. لا تلتفت إلى نزعات الهوى، ولا

---

(١) الإحياء: ٤/٤٨٣.
(٢) الفوائد: ٩٠.
(٣) صفة الصفوة: ٣/١٦٤.

تتردد مع وساوس الشيطان، وعليك بلزوم الجادة، تنجو وتسلم.

قال **الحسن**: ابن آدم! إنك ناظر غدًا إلى عملك، يوزن خيره وشره، فلا تحقرن شيئًا من الشر أن تتقيه، فإنك إذا رأيته غدًا في ميزانك سرك مكانه[(١)].

وجهاد النفس -يا أخي- جهاد طويل، وطريق محفوف بالمكاره مذاقه مر وملمسه خشن ولكن لا تكن من الذين وصفهم يحيى بن معاذ بقوله: مسكين ابن آدم قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار[(٢)].

يـــا مـــدمن الـــذنب أمـــا تســـتحي
والله في الخلــــــــــوة ثانيكــــــــــا؟
غــــرك مــــن ربــــك إمهالــــه
وســـــتره طـــــول مســـــاويكا[(٣)]

قال **حاتم الأصم**: من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار فهو مغتر لا يأمن الشقاء:

الأول: خطر يوم الميثاق حين قال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فلا يعلم في أي الفريقين كان؟!

الثاني: حين خلق في ظلمات ثلاث، فنادى الملك: بالشقاوة

(١) البداية والنهاية: ٩/٣٠٧.
(٢) السير: ١٣/١٥.
(٣) جامع العلوم والحكم: ١٩٦.

والسعادة، ولا يدري أمن الأشقياء هو أم من السعداء؟!

الثالث: ذكر هول المطالع، فلا يدري أيبشر برضا الله أم بسخطه؟!

الرابع: يوم يصدر الناس أشتاتًا، فلا يدري أي الطريقين يسلك به[(١)]؟!.

أخي الحبيب:

لا تحســـبن ســـرورًا دائمًـــا أبـــدًا
مـــن ســـره زمـــن ســـاءته أزمـــان

لا تغتـــر بشـــباب آنـــف خضـــل
فكـــم تقـــدم قبـــل الشـــيب شـــبان

ويا أخا الشـــيب لـــو ناصـــحت نفســـك
لم يكـــن لمثلـــك في اللـــذات إمعـــان

كان الحسن بن يسار كثيرًا ما يقول: يا ابن آدم! نطفة بالأمس وجيفة غدًا، والبلى فيما بين ذلك، يمسح جبينك كأن الأمر يعني به غيرك، إن الصحيح من لم تمرضه الذنوب، وإن الطاهر من لم تنجسه الخطايا، وإن أكثركم ذكرًا للآخرة أنساكم للدنيا، وإن أنسى الناس للآخرة أكثركم ذكرًا للدنيا.

وإن أهل العبادة من أمسك نفسه عن الشر، وإن البصير من أبصر الحرام فلم يقربه، وإن العاقل من يذكر يوم القيامة و لم ينس

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٧١.

الحساب[1].

أخي... علم أرباب القلوب: أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان: كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار، ومساقي الماء إليها وأن القلب المستغرق بالدنيا: كالأرض السبخة، التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان[2].

وانظر إلى: تقسيم الهمم، ومقدار العزائم... قال محمد بن السماك: همة العاقل في النجاة، والهرب وهمة الأحمق في: اللهو، والطرب[3].

وأعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسلامة وتأميله الإصلاح فيما بعد، وليس لهذا الأمل منتهى، ولا للاغترار حد.

فكلما أصبح وأمسى معافى، زاد الاغترار وطال الأمل، وأي موعظة أبلغ من أن ترى: ديار الأقران، وأحوال الإخوان، وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك، هذا والله شأن الحمقى...

حشا من له عقل أن يسلك هذا المسلك.

---

(١) الزهد للبيهقي: ٩٤.
(٢) منهاج القاصدين: ٢.
(٣) حلية الأولياء: ٨/٢٠٤.

بلى والله إن العاقل ليبادر السلامة، فيدخر من زمنها للزمن، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة.

خصوصًا لمن قد علم أن مراتب الآخرة إنما تعلو بمقدار علو العمل لها، وأن التدارك بعد الفوت لا يمكن.

وقدر أن العاص عفي عنه، أينال مراتب العمال؟

ومن أجال على خاطره ذكر الجنة، التي لا موت فيها، ولا مرض، ولا نوم، ولا غم، بل لذاتها متصلة من غير انقطاع، وزيادتها على قدر زيادة الجد ههنا انتبه هذا الزمان، فلم ينم إلا ضرورة، ولم يغفل عن عمارة لحظة.

ومن رأى أن ذنبًا قد مضت لذته، وبقيت آفاته دائمة، كفاه ذلك زاجرًا عن مثله[1].

مــــلاك الأمــــر تقـــوى الله فأجعـــــل
تقـــــاه عـــــــدة لصـــــــلاح أمـــــرك
وبـــــادر نحـــــو طاعتـــــه بعـــــزم
فمـــا تـــدري مـــتى يمضـــى بعمـــرك[2]

عن **الحسن** قال: يا ابن آدم! إذا رأيت الناس في خير فنافسهم فيه، وإذا رأيتهم في هلكة فذرهم وما اختاروا لأنفسهم، قد رأينا أقوامًا آثروا عاجلتهم على عاقبتهم، فذلوا وهلكوا[3].

(١) صيد الخاطر: ٤٢٧.
(٢) جنة الرضا: ١/١٤١.
(٣) حلية الأولياء: ٢/١٥٧.

أخي التائب: نادى منادي الإيمان: ﴿**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآَمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأحقاف: ٣١].

أسمع والله لو صادف آذانًا واعية، وتبصر لو صادف قلوبًا من الفساد خالية، لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء؛ فأطفأت مصابيحها، وتمكنت في آراء الرجال، فأغلقت وأضاعت مفاتيحها، ران عليها كسبها، فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذًا وتحكمت فيها أسقام الجهل، فلم تنتفع معها بصالح العمل(١).

كتب **الحسن** إلى فرقد... **أما بعد**: فإني أوصيك بتقوى الله، والعمل بما علمك الله، والاستعداد لما وعد الله، مما لا حيلة لأحد في دفعه، ولا تنفع الندم عند نزوله، فأحسر عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الجاهلين، وشمر الساق، فإن الدنيا ميدان مسابقة، الغاية: الجنة أو النار، فإن لي ولك من الله مقامًا، يسألني وإياك عنه: وساوس الصدر، ولحظ العيون، وإصغاء الإسماع، وما أعجز عنه(٢).

اليوم تفعل ما تشاء وتشتهي
وغدًا تموت وترفع الأقلام

---

(١) مدارج السالكين: ١/٧.
(٢) البداية والنهاية: ٩/٣٠٢.

أخي التائب:

إن أصول المعاصي كلها، كبارها وصغارها، ثلاثة:

تعلق القلب بغير الله.

وطاعة القوة الغضبية.

والقوة الشهوانية.

وهي: الشرك، والظلم، والفواحش.

فغاية التعلق بغير الله: شرك، وأن يدعى معه إله آخر، وغاية طاعة القوة الغضبية: القتل، وغاية طاعة القوة الشهوانية: الزنى.

ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ**﴾[١].

قال **ابن عباس:** يا صاحب الذنب! لا تأمن فتنة الذنب، وسوء عاقبة الذنب، ولتتبعك الذنب أعظم من الذنب إذا عملته.

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء...؟

قال بندار يتحدث عن يحيى القطان: اختلفت إليه عشرين سنة، فما أظن أنه عصى الله قط[٢].

وقال **عون بن عبد الله** يحذرنا من طول الأمل: ما أحد ينزل الموت حق منزلته، إلا عد غدًا ليس من أجله، كم من مستقبل يومًا

(١) الفوائد: ١٠٦.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/٢٩٩.

لا يستكمله، وراج غدًا لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره[1].

أخي المذنب -وكلنا كذلك-.. هيا نسارع إلى جنة عرضها السموات والأرض فيها: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

هبك عمرت مثل ما عاش نوح
ثم لاقيت كل ذلك يسارا
هل من الموت -لا أبا لك- بد
أي حي إلى سوى الموت صارا[2]

إن الحزن على الدنيا طويل، والموت في الإنسان قريب، وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في الجسم دبيب، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل[3].

قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدينا، ويهون مصائب فيها[4].

---

(١) حلية الأولياء: ٤/٢٤٣.
(٢) السير: ١٠/٢٣٣.
(٣) الإحياء: ٤/٤٨٣.
(٤) التذكرة: ١٣.

قـــــــــل للمفـــــــــرط يســـــــــتعد

مـــــا مـــــن ورود المـــــوت بـــــد[١]

قال **ابن الجوزي**: تأملت وقع المعاصي من العصاة، فوجدهم لا يقصدون العصيان، وإنما يقصدون موافقة هواهم، فوقع العصيان تبعًا.

فنظرت في سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المخالفة؛ فإذا به ملاحظتهم لكرم الخالق، وفضله الزاخر، ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته، ما انبسطت كف بمخالفته[٢].

يـــا أيهـــا المـــذنب المحصـــي جرائمـــه

لا تـــنس ذنبـــك واذكـــر منـــه مـــا ســـلفا

وتب إلى الله قبـــل المـــوت وانزجـــر عنـــه

يـــا عاصـــيًا واعتـــرف إن كنـــت معترفًـــا[٣]

قال رجل **لداود الطائي**: أوصني، قال: اتق الله، وبر والديك، ويحك... صم الدنيا، واجعل فطرك الموت، واجتنب الناس[٤].

وكان **زياد بن جرير** يقول: تجهزتم؟ فسمعه رجل يقوم: ما يعني له بقوله تجهزتم؟ فيقول: تجهزتم للقاء الله تعالى[٥].

---

(١) التبصرة: ١/٧٠.
(٢) صيد الخاطر: ٢٨٥.
(٣) مكاشفة القلوب: ٩١.
(٤) السير: ٧/٤٢٤.
(٥) حلية الأولياء: ٤/١٩٧.

ألا أيهـــا المغـــرور مـــا لـــك تلعـــب
تؤمـــــل آمــــــالاً وموتـــــك أقـــــرب

قال **أويس القرني** -رضي الله عنه- لبعض إخوانه: يا أخي: إذا نمت، فاذكر الموت، واجعله أمامك. وإذا قمت، فلا تنظر لصغر ذنبك، ولكن انظر إلى من عصيت.

أخي الحبيب:

الهمة العالية: من استعد صاحبها للقاء الرب -جل وعلا-..

سلك الطريق وأظمأ الهواجر.. وقام من الليل.. فإنها لحظات قادمة وآجال محدودة... وانظر يمنة ويسرة، لترى أين ذهب ذلك الفتى؟ وماذا أصابه؟ ومن فاجأه؟!

بينمـــا الفـــتى مـــرح الخطـــا فـــرح بمـــا
يســـعى لـــه إذ قيـــل: قـــد مـــرض الفـــتى
إذ قيــــل: بـــــات ليلـــــة مـــــا نامهـــــا
إذ قيــــل: أصـــــبح مثخنًـــــا مـــــا يرتجـــــى
إذ قيــــل: أصـــــبح شاخصًـــــا وموجهًـــــا
ومعلـــــلاً إذ قيــــل: أصـــــبح قـــــد قضـــــى[1]

عن **الحسن** قال: ابن آدم.. السكين تحد، والكبش يعلف.. والتنور يسجر[2].

(١) التذكرة: ٢٢.
(٢) السير: ٤/٥٨٦.

فينبغي لك ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط حاكم بالعدل، وإن كان حلمه يسع الذنوب، إلا أنه إذا شاء عفا، فعفا كل كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ وأخذ باليسير.. فالحذر الحذر[(١)].

وكان **الحسن** يقول: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس..

ابن آدم! إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك[(٢)].

وقال **عبد الله بن سميط**: سمعت أبي يقول: أيها المغتر بطول صحته ! أما رأيت ميتًا قط من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المهلة! أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدة[(٣)]؟

وما هي إلا ليلة بعد ليلة
ويوم إلى يوم وشهر إلى شهر
مطايا يقربن الجديد إلى البلى
ويدنين أشلاء الصحيح إلى القبر[(٤)]

---

(١) صيد الخاطر: ١٨٥.
(٢) حلية الأولياء: ٢/١٥٥.
(٣) الإحياء: ٤/٤٨٣.
(٤) عقود اللؤلؤ والمرجان: ٢١٦.

وحين سأل رجل **عبد العزيز بن أبي رواد**: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت والله في غفلة عظيمة عن الموت، مع ذنوب كثيرة قد أحاطت بي... راحل يسرع كل يوم في عمر... ومؤمل لست أدري على ما أهجم... ثم بكى[(1)].

أخي الحبيب:

ترجـــو البقـــاء بــــدار لا ثبـــات لهـــا

فهـــل سمعـــت بظـــل غـــير منتقـــل؟[(2)]

فالواجب على العقال أن يحذر مغبة المعاصي، فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت، وربما جاءت مستعجلة، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماء يطفئ تلك النار إلا ما كان من دمع العين[(3)].

قال **إبراهيم التيمي**: مثلت نفسي في النار: أعالج أغلالها وسعيرها، وآكل من زقومها وأشرب من زمهريرها، فقلت: يا نفس! أي شيء تشتهين؟! قالت: أرجع إلى الدنيا، أعمل صالحًا عملا أنجو به من النار... من هذا العذاب ومثلت نفسي في الجنة: مع حورها وألبس من سندسها وإستبرقها وحريرها، فقلت: يا نفس! أي شيء تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا، فأعمل عملاً

---

(١) حلية الأولياء: ١٩٤/٨.

(٢) طبقات الشافعية: ٢٣٩/٢.

(٣) صيد الخاطر: ٢٦٧.

أزداد من الثواب فقلت: أنت في الدنيا وفي الأمنية[١].

مثـــــل لنفســـــك أيهـــــا المغـــــرور
يـــــوم القيامـــــة والســـــماء تمـــــور
إذا كـــورت شمـــس النـــهار وأدنيـــت
حـــتى علـــى رأس العبـــاد تســـير
وإذا النجـــوم تســـاقطت وتنـــاثرت
وتبـــدلت بعـــد الضـــياء كـــدور
وإذا البحـــار تفجـــرت مـــن خوفهـــا
ورأيتـــها مثـــل الجحـــيم تفـــور
وإذا الجبـــال تقلعـــت بأصـــولها
فرأيتـــها مثـــل الســـحاب تســـير
وإذا الوحـــوش لـــدى القيامـــة أحشـــرت
وتقـــول للأمـــلاك أيـــن نســـير[٢]

ونحن في غفلة... تعجب منها مالك بن دينار بقوله: عجبًا لمن يعلم: أن الموت مصيره، والقبر مورده.. كيف تقر بالدنيا عينه؟ وكيف يطيب فيها عيشه[٣]؟

(١) حلية الأولياء: ٤/٢١١.
(٢) التذكرة: ٢٤٤.
(٣) صفة الصفوة: ٣/٢٧٧.

ولما حضر الموت **الحسن**، دخل عليه رجال من أصحابه فقالوا له: يا أبا سعيد زودنا منك كلمات تنفعنا قال: إني مزودكم: ثلاث كلمات، ثم قوموا عني، ودعوني لما توجهت له، ما نهيتم من أمرفكونوا من أترك الناس له، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أن خطاكم: خطوتان: خطوة لكم، وخطوة عليكم، فانظروا أين تغدون؟ وأين تروحون[(١)]؟

خطب **عمر بن عبد العزيز** فقال: أما بعد: فإن كنتم مؤمنين بالآخرة، فأنتم حمقى، وإن كنتم مكذبين بها فأنتم هلكى[(٢)].

إن من نازعته نفسه إلى لذة محرمة، فشغله نظره إليها عن تأمل عواقبها وعقابها، وسمع نداء العقل يناديه: ويحك لا تفعل... فإنك تقف عن الصعود، وتأخذ في الهبوط، ويقال لك: ابعد بما اخترت، فإن شغله هواه فلم يلتفت إلىما قيل له، لم يزل في نزول[(٣)].

قيل **للشافعي** –رحمه الله–: مالك تكثر من إمساك العصا، ولست بضعيف؟ قال: لأذكر أني مسافر[(٤)].

وكان **عطاء السلمي** يقول: رب ارحم في الدنيا غربتي، وفي القبر وحدتي، وطول مقامي غدًا بين يديك[(٥)].

---

(١) حلية الأولياء: ٢/١٥٤.
(٢) حلية الأولياء: ٥/٢٩٠.
(٣) صيد الخاطر: ٢٥٦.
(٤) السير: ١٠/٩٧.
(٥) حلية الأولياء: ٦/٢٢٤.

أخي التائب:

إذا كثـــرت منـــك الـــذنوب فـــداوها
برفـــع يـــد في الليـــل والليـــل مظلـــم

ولا تقـــنطن مـــن رحمـــة الله إنمـــا
قنوطـــك منـــها في خطايـــاك أعظـــم

فرحمتــــــه للمحســــــنين كرامــــــة
ورحمتــــــه للمســــــرفين تكــــــرم[1]

(١) التبصرة: ١/٢٠٠.

أضرار الذنوب

اللذة المحرمة ممزوجة بالقبح حال تناولها، مثمرة للألم بعد انقضائها، فإذا اشتدت الداعية منك إليها، ففكر في انقطاعها، وبقاء قبحها وألمها، ثم وازن بين الأمرين، وانظر ما بينهما من التفاوت(1).

قال **عبد الله بن عباس**: إن للحسنة: ضياء في الوجه ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة: سوادًا في الوجه، وظلمة في القبر، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق(2).

ومن آثار الذنوب والمعاصي ما قاله أبو الدرداء: ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: تدرون مم هذا ؟ إن العبد يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر(3).

والتعب -أخي الحبيب-: بالطاعة ممزوج بالحسن، مثمر للذة والراحة، فإذا ثقلت على النفس، ففكر في انقطاع تعبها، وبقاء

---

(1) الفوائد: ٢٤٨.
(2) الجواب الكافي: ٩٩.
(3) الجواب الكافي: ٩٦.

حسنها ولذتها وسرورها، ووازن بين الأمرين، وآثر الراجح على المرجوح، فإن تألمت بالسبب فانظر إلى ما في المسبب من الفرحة والسرور واللذة يهن عليك مقاساته وإن تألمت بترك اللذة المحرمة؛ فانظر إلى الألم الذي يعقبه، ووازن بين الألمين[1].

وتفكر أخي الكريم في نتائج الذنب.. وما يسببه في قلبك وانظر إلى نور الحسنة، وأتبعها أختها.

قال **أبو الحسن المزين**: الذنب عقوبة الذنب، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة[2].

فإن الذنوب والمعاصي تضر ولاشك، وضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شرور إلا سببها الذنوب والمعاصي؟

هذا ابن عباس يحذرنا من الذنوب والمعاصي، فيقول: لا تأمنن من سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته[3].

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟

قال **هشام بن حسان**: كنت أمشي خلف العلاء بن زياد، فكنت أتوقى الطين، قال فدفعه إنسان فوقعت رجله في الطين فخاضه فلما وصل إلى الباب وقف فقال: رأيت يا هشام؟ قلت:

---

(١) الفوائد: ٢٤٨.

(٢) صفة الصفوة: ٢/٢٢٦.

(٣) جامع العلوم والحكم: ٤٣٠.

نعم، قال: كذلك المرء المسلم يتوقى الذنوب، فإذا وقع فيها خاضها[1].

والعبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده، ولا الجرأة على محارمه، ولكن غلبات الطبع، وتزيين النفس والشيطان، وقهر الهوى، والثقة بالعفو، ورجاء المغفرة، هذا من جانب العبد، وأما من جانب الربوبية: فجريان الحكم وإظهار عز الربوبية، وذل العبودية، وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء الحسنى: كالعفو والغفور والتواب والحليم، لمن جاء تائبًا نادمًا والمنتقم والعدل وذي البطش الشديد لمن أصر ولزم المجرة.

فهو سبحانه يريد أن يري عبده تفرده بالكمال، ونقص العبد وحاجته إليه، ويشهده كمال قدرته وعزته، وكمال مغفرته وعفوه، ورحمته، وكمال بره وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه، وأن رحمته به إحسان إليه لا معارضة، وأنه إن لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة.

فلله كم في تقدير الذنب من حكمة وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة[2].

قال **سليمان التيمي**: إن الرجل ليذنب الذنب فيصبح وعليه مذلته.

---

(١) حلية الأولياء: ٢/٢٤٤.

(٢) الفوائد: ٨٨.

أخي التائب:

وإن امـــــرءًا لم يصـــــف لله قلبـــــه

لفـــي وحشـــة مـــن كـــل نظـــرة نـــاظر

وإن امـــــرءًا لم يرتحـــــل ببضـــــاعة

إلى داره الأخــــرى فلـــــيس بتــــاجر

وإن امـــــرءًا ابتــــاع دنيـــا بدينـــــه

لمنقلــــب منـــــها بصـــــفقة خاســــر

والتوبة من الذنب: كشرب الدواء للعليل، ورب علة كانت سبب الصحة[(١)].

اعلموا إخواني! أن للذنوب تأثيرات قبيحة، مرارتها تزيد على حلاوتها أضعافًا مضاعفة، والمجازي بالمرصاد لا يسبقه شيء ولا يفوته.

والذنوب كما قيل: جراحات، ورب جرح وقع في مقتل[(٢)].

فرب جرح قتل ورب عثرة أهلكت.. ورب فارط لا يستدرك .

كان **الحسن**[(٣)] يقول إذا قرأ: **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾**.

---

(١) الفوائد: ٨٨.

(٢) الفوائد: ٥٤.

(٣) الحسن البصري ١٤٩.

يقول: ابن آدم ما كان في غدوة أو روحة ما تصبر على المعصية[1].

إذا أنت طاوعــت الهــوى قــادك الهــوى

إلى بعـــض مـــا فيـــه عليـــك مقـــال

(١) شذرات الذهب: ١/١٦٥.

نُصح المذنب

سأل رجل **ابن مسعود** عن ذنب ألم به... هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب: كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة، فإن عليه ملكًا موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس[١].

أخي الكريم: كلنا أصحاب ذنوب وخطايا، ولكن خيرنا من يسارع إلى التوبة.. تحثه الخطى وتسرع به الدمعة، ويعينه أهل الخير...رفقاء الدنيا والآخرة.

عن أبي قلابة، أن **أبا الدرداء** مرعلى رجل قد أصاب ذنبًا، فكانوا يسبونه فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله –عز وجل– الذي عافاكم، قالوا: أفلا نبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي[٢].

وكان رجل على حال حسنة فأحدث حدثًا أو أذنب ذنبًا فرفضه أصحابه ونبذوه، فبلغ **إبراهيم النخعي**، فقال: تداركوه وأعطوه ولا تدعوه[٣].

من واجب المحبة والنصيحة عدم ترك العاصي يستمر في

(١) الإحياء: ٤/١٦.

(٢) صفة الصفوة: ١/٦٤٠، حلية الأولياء: ١/٢٢٥.

(٣) صفة الصفوة: ٣/٨٩.

معصيته بل يحاط بإخوانه، ويذكر ولا يهمل فيزل ويطرق أبوابًا أخرى... وهنا يكمن الأخ المخلص والصديق الوفي.. يحوطه قبل أن تزل قدمه وتهوي.

قال **رجاء بن حيوة** لرجلين وهو يعظهما: انظرا الأمر الذي تحبان أن تلقيا الله –عز وجل– فخذا فيه الساعة، وانظرا الأمر الذي تكرهان أن تلقيا الله –عز وجل– عليه فدعاه الساعة[1].

فلله در قوم بادروا الأوقات، واستدركوا الهفوات، فالعين مشغولة بالدمع عن المحرمات، واللسان محبوس في سجن الصمت عن الهلكات، والكف قد كفت بالخوف عن الشهوات، والقدم قد قيدت بقيد المحاسبات، والليل لديهم يجأرون فيه بالأصوات، فإذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة اللذات، فكم من شهوة ما بلغوها حتى الممات، فتيقظ للحافهم من هذه الرقدات، ولا تطمعن في الخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات، ولا تؤملن النجاة وأنت مقيم على الموبقات.

شمـــــر عســـــى أن ينفــــع التشـــــمير
وانظــــر بفكــــرك مـــــا إليــــه تصــــير
طولــــت آمـــــالاً تكنفهـــــا الهــــوى
ونســــيت أن العمــــر منــــك قصــــير

---

(١) صفة الصفوة: ٤/٢١٤.

قـــد أفصـــحت دنيـــاك عـــن غـــدراتها

وأتـــــى مشـــــيبك والمشـــــيب نـــــذير

دار لهـــــوت بهـــــا زهـــــوًا متمتعًـــــا

ترجـــو المقـــام بهـــا وأنـــت تســـير[1]

أخي الحبيب: اشتر نفسك اليوم فإن السوق قائمة، والثمن موجود والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير... ذلك يوم التغابن –يوم يعض الظالم على يده–.

ويا أخي:

إذا أنـــت لم ترحـــل بـــزاد مـــن التقـــى

وأبصـــرت يـــوم الحشـــر مـــن قـــد تـــزودا

نـــدمت علـــى أن لا تكـــون كمثلـــه

وأنـــك لم ترصـــد كمـــا كـــان أرصـــدا[2]

---

(١) التبصرة: ١/١٢٠.

(٢) الفوائد: ٦٤.

نماذج من المحافظة على الأعمار

الأعمار تطوى والمراحل تقضى.. وهي أيام تمر مر السحاب... إذا فات يوم لم نستطع تداركه وإذا زال نهار أقبل ليل جديد.

كان **يزيد الرقاشي** يقول لنفسه: ويحك يا يزيد!!! من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟ ثم يقول: أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ من الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله[1]؟!!

وهذا ميمون بن مهران، يرفع صوته بنداءات حارة، فيقول لجلسائه: يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا ابيض؟ قالوا: الحصاد، فنظر إلى الشباب، فقال: يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد.

أخي الحبيب... البدار البدار:

ومـــا مضـــى الشـــباب بمســـترد

ولا يـــــوم يمـــــر بمســـــتعاد

(١) التذكرة للقرطبي: ١٠.

ويا أخي:

دع عنك ما قـــد فـــات في زمـــن الصـــبا
واذكـــر ذنوبـــك وابكهـــا يـــا مـــذنب

واخـــش مناقشـــة الحســـاب فإنـــه
لابـــد محـــص مـــا جنيـــت ويكتـــب

لم ينســـه الملكـــان حـــين نســـيته
بـــل أثبتـــاه وأنـــت لاه تلعـــب[1]

أخي:

إنما فضل العقل بتأمل العواقب، فأما قليل العقل؛ فإنه يرى الحال الحاضرة، ولا ينظر إلى عاقبتها... فإن اللص يرى أخذ المال، وينسى قطع اليد، والبطال يرى لذة الراحة وينسى ما تجني من فوات العلم وكسب المال، فإذا كبر فسئل عن علم لم يدر، وإذا احتاج سأل فذل، فقد أربى ما حصل من التأسف على لذة البطالة. ثم يفوته ثواب الآخرة بترك العمل في الدنيا.

قس على هذه وانتبه للعواقب، ولا تؤثر لذة تفوت خيرًا كثيرًا وصابر المشقة تحصل ربحًا وافرًا[2].

قال عبد العزيز بن أبي رواد لرجل: من لم يتعظ بثلاث لم

(١) ديوان الإمام الشافعي: ٤٧.
(٢) صيد الخاطر: ٦١٣.

يتعظ بشيء... الإسلام والقرآن والمشيب[1].

ألم تـــك منـــهاة عـــن الزهـــو أنـــني
بـــدا لي شـــيب الـــرأس والضـــعف والألم؟

ألم بي الخطـــب الـــذي لـــو بكيتـــه
حيـــاتي حـــتى ينفـــذ الـــدمع لم أُلَـــمْ[2]

قال **أبو عبد الله القرشي**: سيروا إلى الله تعالى عرجًا ومكاسير فإن انتظار الصحة بطالة[3].

وقال بعضهم: أكثر من يموت الشباب وآية ذلك أن الشيوخ في الناس قليل.. فكن -أخي- على حذر من أن يفجأك من لم تستعد له... فتمسي في قبرك بدون زاد... فإن:

ســـبيلك في الـــدنيا ســـبيل مســـافر
ولابـــد مـــن زادٍ لكـــل مســـافر

ولابـــد للإنســـان مـــن حمـــل عـــدة
ولاســـيما إن خـــاف ســـطوة قـــاهر[4]

قف يا أخي! حاسب نفسك وكن مثل **محمد بن الفضل** عندما قال: ما خطوت منذ أربعين سنة خطوة لغير الله -عز

(١) صفة الصفوة: ٢/٢٢٩.
(٢) السير: ٢٢/٩.
(٣) وفيات الأعيان: ٤/٣٠٦.
(٤) التبصرة: ١/٣٥.

وجل-[1].

وهذا **خارجة بن مصعب** يقول: صحبت **عبد الله بن عوف** أربعًا وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة[2].

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟

تمر أيامنا وتنقص أعمارنا ونحن لا نزال في غفلاتنا.. نسوف في التوبة... ونلمح سراب الأمل... وقد قال **أبو سليمان الداراني**: من كان يومه مثل أمس فهو في نقصان.

وكيف لا يكون في نقصان، وهو يقترب نحو منيته... ويسير إلى نهايته... وهو في تقصير متتابع ولهو، ووقت ضائع.

وحين عوتب **عطاء السليمي** في الرفق بنفسه قال: أتأمرونني بالتقصير، والموت في عنقي والقبر بيتي، وجهنم أمامي...

ولا أدري ما يصنع بي ربي –عز وجل-[3].

المـــــــرء تأكلـــــــه الليـــــالي

كأكـــــل الأرض ســــــاقطة الحديـــــد[4]

قال **سعيد بن جبير**: إن بقاء المسلم كل يوم غنيمة فذكر الفرائض والصلوات وما يرزقه الله من ذكره[5].

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٩٣٠.

(٢) حلية الأولياء: ٣/٣٧.

(٣) الزهد للبيهقي: ٢٢٨.

(٤) وفيات الأعيان: ٦/١٠٣.

(٥) السير: ٤/٣٢٦.

وقال **ميمون بن مهران:** لا خير في الدنيا إلا لرجلين، رجل تائب، ورجل يعمل في الدرجات[(١)].

قال ابن الجوزي:

تذكرت في سبب دخول جهنم، فإذا هو المعاصي.. فنظرت في المعاصي، فإذا هي حاصلة في طلب اللذات، فنظرت في اللذات، فرأيتها خدعًا ليست بشيء، وفي ضمنها من الأكدار ما يصيرها نغصًا فتخرج عن كونها لذات.

فكيف يتبع العاقل نفسه، ويرضى بجهنم لأجل هذه الأكدار؟ وهي ليست بكثير شيء فكيف تباع الآخرة بمثل هذه[(٢)]؟.

ولا خـــير في الـــدنيا لمـــن لم يكـــن لـــه
مـــــــن الله في دار المقـــــــام نصـــــــيب
فـــإن تعجـــب الـــدنيا رجـــالاً فإنـــه
متـــــاع قليـــــل والـــــزوال قريـــــب

قال **رياح القيس:** لي نيف وأربعون ذنبًا، قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة[(٣)].

كثرت ذنوبنا فلم نحصها...وقلت ذنوبهم فعرفوها.

قال **أبو إسحاق القرشي:** كتب إلي أخي من مكة... يا

(١) حلية الأولياء: ٤/٨٣.
(٢) صيد الخاطر: ٥٥٣.
(٣) صفة الصفوة: ٣/٣٦٨.

أخي! إن كنت تصدقت بما مضى من عمرك على الدنيا، وهو الأكثر، فتصدق بما بقي من عمرك على الآخرة، وهو الأقل[(١)].

وفي حديث لتحريك الهمم وشحذ النفوس، قال **السري**: يا معشر الشباب! جدوا قبل أن تبلغو مبلغي فتضعفوا، وتقصروا كما قصرت... وكان -رحمه الله- في ذلك الوقت لا تلحقه الشباب إلى العبادة.

وكان **العلاء بن زياد** يقول: ينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه -عز وجل- فأقاله... فليعمل بطاعة الله -عز وجل-.

ونحن -يا أخي- -أقالنا الله- عز وجل- وأمد في أعمارنا...

وفتح لنا باب التوبة... والإنابة والأوبة... فماذا بقي...؟ إنها محاسبة النفس، والجد في الطاعة، والإسراع في التوبة.

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي
درج الجنان وطيب عيش العابد
ونسيت أن الله أخرج آدم
منها إلى الدنيا بذنب واحد[(٢)]

رأيت من نفسي عجبًا... تسأل الله -عز وجل- حاجاتها، وتنسى جناياتها.. نحرص على جمع الدنيا وحطامها وهي سنوات

(١) الزهد للبيهقي: ١٧٥.
(٢) البداية والنهاية: ٩/٢٩١.

محدودة... ولهونا عن الآخرة وهي الحياة الأبدية، قال رجل **لأبي حازم**: أوصني قال: كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه، وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه[(١)].

وقال الحسن وهو يحكي حالنا: إن المؤمن لا يصبح إلا خائفًا... ولا يصلح إلا ذاك، لأنه بين ذنبين... ذنب مضى لا يدري كيف يصنع الله فيه، وأجل أو قال آخر... لا يدري ما كتب عليه فيه.

وقال -رحمه الله-: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث:

أنه لم يتمتع بما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه[(٢)].

قال ابن الجوزي:

رأيت الخلق كلهم في صف محاربة، والشياطين يرموهم بنبل الهوى ويضربوهم بأسياف اللذة.

فأما المخلطون فصرعى من أول وقت اللقاء.

وأما المتقون ففي جهد جهيد من المجاهدة، فلا بد مع طول الوقوف في المحاربة من جراح، منهم يجرحون ويداوون، إلا أنهم من القتل محفوظون، بلى إن الجراحة في الوجه شين باق، فليحذر ذلك

---

(١) الإحياء: ٤/٢٨.

(٢) حلية الأولياء: ٦/٢٧٢.

المجاهدون[1].

مضـــى أمســـك الأدنى شـــهيدًا معـــدلاً
ويومـــــك هـــــذا بالفعـــــال شـــــهيد

فـــإن تـــك بـــالأمس اقترفـــت إســـاءة
فـــــثن بإحســـــان وأنـــــت حميـــــد

ولا تـــرج فعـــل الخـــير منـــك إلى غـــد
لعـــل غـــدًا يـــأتي وأنـــت فقيـــد[2]

أخي الحبيب: قس نفسك، وانظر ماذا يهمك في هذه الدنيا؟ آمالك وطموحاتك ما هي؟ أهي حطام الدنيا أم جنة عرضها السموات والأرض؟! وانظر ما يهمك من أمر، أهو للآخرة أم للدنيا؟ فقد قال الجنيد بن محمد: علامة إعراض الله عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه[3].

فلا تشغلك الدنيا بزينتها وزخرفها فإننا:

نســـير إلى الآجـــال في كـــل لحظـــة
وأيامنــــا تطـــوى وهـــن مراحـــل

ولم أر مثـــل المـــوت حقًـــا كأنـــه
إذا مـــا تخطتـــه الأمـــاني باطـــل

(١) صيد الخاطر: ٢٥٧.
(٢) مكاشفة القلوب: ١٣٢.
(٣) صفة الصفوة: ٢/٤١٨.

ومـــا أقـــبح التفـــريط في زمـــن الصـــبا
فكيــــــف والشـــــيب للــــــرأس شـــــاغل؟
فارحـــل مـــن الـــدنيا بـــزاد مـــن التقـــى
فعمـــــــرك أيــــــام وهــــــن قلائــــــل

الإنسان خير المخلوقات إذا تقرب من بارئه والتزم أوامره ونواهيه، وعمل بمرضاته، وآثره على هواه، وشر المخلوقات إذا تباعد عنه، ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته فمتى اختار التقرب إليه، وآثره على نفسه وهواه فقد حكم قلبه وعقله وإيمانه على نفسه وشيطانه، وحكم رشده على غيه، وهداه على هواه، ومتى اختار التباعد منه فقد حكم نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده[(١)].

عن مسرور بن الأجدع قال: إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها يتذكر ذنوبه ويستغفر منها[(٢)].

وقد كان **ابن أبي ذئب** الإمام يجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غدًا ما كان فيه مزيد اجتهاد[(٣)].

أيأســـــوني لمــــــا رأوا مــــــن ذنــــــوبي
أتــــــراهم هــــــم الغفـــــــور الـــــــرحيم؟

---

(١) الفوائد: ٢٢٥.
(٢) صفة الصفوة: ٣/٢٦.
(٣) تذكرة الحفاظ: ١/١٩١.

اتركـــــــوني وإن تعـــــــاظم ذنـــــــبي

إنمـــــا يغفـــــر العظـــــيمَ العظـــــيمُ[1]

تأملت في الخلق وإذا هم في حالة عجيبة، ويكاد يقطع منها بفساد العقل، وذلك أن الإنسان يسمع المواعظ، وتذكر له الآخرة، فيعلم صدق القائل، فيبكي وينزعج على تفريطه، ويعزم على الاستدراك، ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه.

فإذا قيل له: أتشك فيما وعدت به؟ قال: لا والله، فيقال له: فاعمل فينوي ذلك، ثم يتوقف عن العمل، وربما مال إلى لذة محرمة وهو يعلم النهي عنها[2].

قال **أبو الدرداء**: تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة[3].

أخي التائب: الحذر الحذر من المعاصي.. فإن عواقبها سيئة، وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط أبدًا مع تعثير أقدامه وشدة فقره، وحسراته على ما يفوته من الدنيا، وحسرة لمن نالها.

فالله الله في تجويد التوبة عساها تكف كف الجزاء.. والحذر الحذر من الذنوب خصوصًا ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى

(١) جنة الرضا: ١/١٣٥.
(٢) صيد الخاطر: ٤٦١.
(٣) جامع العلوم: ١٩٢.

تسقط العبد من عينه، وأصلح ما بينك وبينه في السر وقد أصلح لك أحوال العلانية.

ولا تغتر بستره، فربما يجذب عن عورتك، ولا بحلمه فربما بغت العقاب، وعليك بالقلق واللجوء إليه والتضرع[1].

---

(١) صيد الخاطر: ٢٦٤.

صور من التوبة

قوافل التائبين تسير... وجموع المنيبين تقبل وباب التوبة مفتوح ودعوة تتلى من آيات القرآن الكريم: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٣١].

دموع التائبين صادقة، وقلوبهم... منخلعة.. يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار.

قال **عمر بن الخطاب** -رضي الله عنه-: اجلسوا إلى التوابين، فإنهم أرق أفئدة[١].

وذكر أن **الفضيل بن عياض** كان شاطرًا في قطع الطريق، وكان يتعشق جارية، فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جدارًا إذ سمع قارئًا يقرأ: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**﴾، فقال: بلى، فتاب وأقلع عما كان عليه، ورجع إلى خربة، فبات بها، فسمع سفارًا يقول: خذوا حذركم، إن فضيلاً أمامكم يقطع الطريق، فأمنهم واستمر على توبته، حتى كان منه ما كان من السيادة والعبادة والزهادة، ثم صار علمًا يقتدى به، ويهتدى بكلامه وفعاله[٢].

خـــــــل الـــــــذنوب صـــــــغيرها
وكبيرهــــــــــــــا ذاك التقـــــــــــــى

---

(١) الإحياء: ٤/١٦.
(٢) البداية والنهاية: ١٠/٢٢٦.

واصـــــنع كمـــــاش فـــوق أر
ض الشـــوك يحـــذر مـــا يـــرى
لا تحقـــــــرن صـــــغيرة
إن الجبـــال مـــن الحصـــى[1]

قال **إبراهيم بن بشار**: قلت لإبراهيم بن أدهم: كيف كان بدء أمرك؟ قال: غير ذا أولى بك، قال: قلت: أخبرني لعل الله أن ينفعنا به يومًا، قال: كان أبي من الملوك المياسير، وحبب إلينا الصيد، فركبت، فثار أرنب أو ثعلب، فحركت فرسي، فسمعت نداءً من ورائي: ليس لذا خلقت، ولابذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحدًا فقلت: لعن الله إبليس ثم حركت فرسي، فأسمع نداء أجهر من ذلك: يا إبراهيم ليس لذا خلقت، ولا بذا أمرت، فوقفت أنظر فلا أرى أحدًا، فقلت: لعن الله إبليس، فأسمع نداء من قربوس (حنو الفرس) سرجي بذاك، فقلت: انبهت، انبهت، جاني نذير، والله لا عصيت الله بعد يومي ما عصمني الله، فرجعت إلى أهلي، فخليت فرسي، ثم جئت إلى رعاة لأبي، فأخذت جبة كساء، وألقيت ثيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق، فعملت بها أيامًا، فلم يصف لي منها الحلال، فقيل لي: عليك بالشام.

في الـــــــذاهبين الأولـــــــ
يـــن مـــن القـــرون لنـــا بصـــائر

(١) بستان العارفين: ١٠٥.

لمـــــــا رأيــــــــت مــــــــــواردًا
للمــــــوت لـــــيس لهــــا مصــــادر
ورأيــــــت قــــــومي نحوهــــــا
يســــــعى الأصــــاغر والأكــــــابر
لا يرجــــــــــــع الماضــــــــــي إلي
ولا مـــــــــن البــــــــاقين غــــــــابر
أيقنــــــــــــت أني لا محــــــــــا
لـــــة حيــــث صــــار القــــوم صــــائر[1]

قال **سلام بن أبي مطيع**: كن لنعمة الله عليك في دينك، أشكر منك لنعمة الله لعليك في دنياك[2].

وقالت **عائشة** -رضي الله عنها- إنكم لن تلقوا الله بشيء خير لكم من قلة الذنوب فمن سره أن يسبق الدائب المجتهد، فليكف نفسه عن كثرة الذنوب[3].

أخي الحبيب: عليك بلزوم الطريق والسير على الجادة

واتـــــــق الله فتقــــــــوى مــــــا
جــــاوزت قلــــب امــــرئ إلا وصــــل

(١) تاريخ بغداد: ٢/٢٨١.
(٢) حلية الأولياء: ٦/١٨٨.
(٣) صفة الصفوة: ٢/٣٢.

لـــــيس مــــن يقطـــع طرقًـــا بطـــلاً
إنمــــــا مـــــــن يتـــــق الله البطــــــل

كان الحسن يقول: نضحك ولعل الله قد اطلّع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا[1].

فالدنيا خداعة غدارة... ترى منها الحسن... فتلهيك عن الدار الآخرة... ثم يفجأك الموت على حين غفلة من أمرك...

فـــــلا تغرنــــك الــــدنيا وزينتــــها
وانظـــر إلى فعلــــها في الأهــــل والـــوطن
وانظـــر إلى مـــن حـــوى الـــدنيا بأجمعهـــا
هـــل راح منـــها بغـــير الـــزاد والكفـــن[2]

وتأمل –أخي– في قول **الحسن**: المؤمن من علم أن ما قال الله كما قال، والمؤمن: أحسن الناس عملاً، وأشد الناس وجلاً، فلو أنفق جبلاً من مال، ما أمن دون أن يعاين، لا يزداد صلاحًا وبرًا إلا ازداد فرقًا، والمنافق يقول: سواد الناس كثير وسيغفر لي، ولا بأس علي، فيسيئ العمل ويتمنى على الله[3].

وكان **الربيع بن خثيم** يقول لأصحابه: تدرون ما الداء، والدواء، والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء: الذنوب، والدواء:

(١) صفة الصفوة: ٣/٢٣٣.
(٢) موارد الظمآن: ٣/٤٩٢.
(٣) السير: ٤/٥٨٦.

الاستغفار والشفاء: أن تتوب ثم لا تعود[(١)].

أخي الحبيب: جهاد النفس يحتاج إلى: صبر، ومثابرة، وخوف، ووجل، ورجاء، وأمل... لا يتهاون بالصغائر، ولا تؤتى الكبائر.

قال **عمرو بن مرة**: نظرت إلى امرأة فأعجبتني، فكف بصري فأرجو أن يكون ذلك كفارة[(٢)].

أين نحن من هؤلاء؟!

أين من يطلق بصره على محارم الله؟! من يتتبع الخطوات ويلحظ المسلمات بعين شرهة.. لا يكف بصره ولا يخاف ربه.

تنفـــى اللـــذاذة ممـــن نـــال صـــفوتها
مـــن الحـــرام ويبقـــى الإثم والعـــار
تبقـــى عواقـــب ســـوء مـــن مغبتـــها
لا خـــير في لـــذة مـــن بعـــدها النـــار

قال أبو حازم سلمة بن دينار في نصيحة أخوية صادقة: انظر إلى الذي تحب أن يكون معك في الآخرة فقدمه اليوم، وانظر الذي تكره أن يكون معك ثم فاتركه اليوم[(٣)].

---

(١) حلية الأولياء: ٢/١٠٨.
(٢) صفة الصفوة: ٣/١٠٦.
(٣) حلية الأولياء: ٣/٢٣٨.

أخي المسلم:

إذا مـــا خلـــوت يومًـــا فـــلا تقـــل
خلـــوت ولكـــن قـــل علـــي رقيـــب
ولا تحســـبن الله يغفـــل مـــا مضـــى
ولا أن مـــا تخفـــى عليـــه يغيـــب
لهونـــا عـــن الأيـــام حـــتى تتابعـــت
ذنـــوب علـــى آثـــارهن ذنـــوب

قال **مالك بن دينار** -رحمه الله-: رأيت في البادية في يوم شديد البرد شابًا عليه ثوبان خلقان، وعليه آثار الدعاء وأنوار الإجابة، فعرفته، وكنت قبل ذلك عهدته في البصرة: ذا ثروة، وحسن حال، وكان ذا مال، وآمال.

قال: فبكيت لما رأيته على تلك الحال، فلما رآني بكى وبدأني بالسلام، وقال لي: يا مالك بن ينار! ما تقول في عبد أبق من مولاه؟ فبكيت لقوله بكاءً شديدًا، وقلت له: وهل يستطيع المسكين ذلك؟ البلاد بلاده، والعباد عباده، فأين يهرب؟

فقال: يا مالك سمعت قارئًا يقرأ: **﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾**. فأحسست في الحال بنار وقعت بين ضلوعي، فلا تخمد، ولا تهدأ من ذلك اليوم، يا مالك... أتراني أرحم وتطفأ هذه الجمرة من قلبي؟

فقلت له: أحسن الظن بمولاك، فإنه غفور رحيم، ثم قلت له:

إلى أين؟ قال: إلى مكة شرفها الله تعالى لعلي ممن أكون إذا التجأ إلى الحرم استحق مراعاة الذمم.

قال **مالك**: ففارقني ومضى، فتعجبت من وقوع الموعظة منه موقعها، وما تأجج بين جنبيه من نار التيقظ والإنابة، وما حصل عليه من صدق القبول وحسن الاستماع[1].

فحـــي علـــى جنـــات عــــدن فإنهـــا
منازلـــــك الأولى وفيهـــــا المخـــــيم

ولكننـــا ســـبي العـــدو فهـــل تـــرى
نعـــــود إلى أوطاننـــــا ونســـــلم[2]

أخي... طال بنا الأمل... ومضى بنا التسويف... فماذ ننتظر لنتوب؟

وحالنا وتسويفنا حكاه **أبو حازم** بقوله:

نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب، ونحن لا نتوب حتى نموت[3].

لهونـــا الأيـــام حـــتى تتابعـــت
ذنـــوب علـــى آثـــارهن ذنـــوب

(١) العاقبة: ٧٢.

(٢) عقود اللؤلؤ: ٣٣.

(٣) أدب الدنيا والدين: ١٠٩.

فياليـــــت أن يغفـــــر الله مـــــا مضـــــى

ويـــــــأذن لي في توبـــــــة فـــــــأتوب[1]

قال **يونس بن سليمان البلخي**: كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والجنائب والبزاة، فبينما إبراهيم في ذلك اليوم وهو على فرسه يركضه، إذا بصوت من فوقه... يا إبراهيم ما هذا العبث؟ ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾. اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة.

قال: فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة[2].

وقال **الفضيل بن عياض** لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال الفضيل: أتعرف تفسيره؟! تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول، فليعد للسؤال جوابًا، فقال الرجل: فما الحيلة؟

قال: يسيرة... تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى وما بقي[3].

---

(١) حلية الأولياء: ٩/٢٢٠.

(٢) صفة الصفوة: ٤/١٥٢.

(٣) جامع العلوم: ٤٦٤.

أرأيت -أخي- هذا الفضل العظيم والإحسان الجزيل... فالتوبة تجب ما قبلها.

بلغـــــت مـــــن عمـــــري ثمانينًـــــا
وكنـــــــت لا آمــــــل خمســـــــينًا
فالحمـــــــد لله وشـــــكرًا لــــــه
إذ زاد في عمـــــــــري ثلاثينًـــــــا
وأســــــــأل الله بلوغًـــــــا إلى
مرضــــــاته آمـــــين آمينًـــــا[1]

قال **عبد الرحمن بن يزيد بن جابر**: كان عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية -خلاًّ لعبد الملك بن مروان، فلما مات عبد الملك بن مروان وتصدع عن قبره، وقف عليه فقال: أنت عبد الملك الذي كنت تعدني فأرجوك- وتوعدني فأخافك، أصبحت وليس معك من غير ثوبين، وليس لك منه غير أربعة أذرع في عرض ذراعين، ثم انكفأ إلى الله، واجتهد في العبادة، حتى صار كأنه شن بال، فدخل عليه بعض أهله، فعاتبه في نفسه وإضراره بها، فقال للقائل: أسألك عن شيء تصدقني عنه قال: نعم، قال: أخبرني عن حالتك التي أنت عليها، أترضاها لنفسك؟ قال: اللهم لا، قال: أفعزمت على الانتقال منها إلى غيرها؟ قال: ما انتصحت رأيًا في ذلك، قال: أفتأمن أن

(١) تاريخ بغداد: ٥/٢١١.

يأتيك الموت على حالك التي أنت عليها؟ قال: اللهم لا.

قال: حال ما أقام عليها عاقل، ثم انكفأ إلى مصلاه.

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا
وبت أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلت: يا أملي في كل نائبة
ومن عليه لكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها
مالي على حملها صبر ولا جلد

وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً
إليك يا خير من مدت إليه يد

فلا تردنها يا رب خائبة
فبحر جودك يروي كل من يرد[1]

دخل لص على **مالك بن دينار** فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئًا من الدنيا، فترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم، قال: توضأ، وصل ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد، وخرج، فسئل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه[2]!!

قال **مطرف بن عبد الله**: لأن أبيت نائمًا، وأصبح نادمًا:

(١) عقود اللؤلؤ: ٢٥١.
(٢) السير: ٥/٣٦٣.

أحب إلي من أن أبيت قائمًا، وأصبح معجبًا[(١)].

نسير إلى الله في توبة صادقة وبقلب وجل، عسى الله أن يرحمنا.

يـــا رب إن عظمـــت ذنـــوبي كثـــرة
فلقـــد علمـــت بـــأن عفـــوك أعظـــم

إن كـــــان لا يرجـــــوك إلا محســـــن
فمـــن الـــذي يـــدعو ويرجـــو المجـــرم؟

أدعـــوك رب كمـــا أمـــرت تضـــرعًا
فـــإذا رددت يـــدي فمـــن ذا يـــرحم؟

مـــالي إليـــك وســـيلة إلا الرجـــا
وجميـــــل عفـــــوك ثم إني مســـــلم[(٢)]

أخي... أين نحن من تذكر ذنوبنا وأن ما أصابنا هو بسبب ذنوبنا؟! فقد أغلظ رجل **لوكيع بن الجراح**، فدخل بيته، فعفر وجهه في التراب، ثم خرج إلى الرجل فقال: زد وكيعًا بذنبه، فلولاه ما سلطت عليه[(٣)].

وقال ابن سيرين: إني لأعرف الذنب الذي حمل به علي الدين ما هو، قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس[(٤)].

(١) السير: ٤/١٩٠.
(٢) صفة الصفوة: ٣/١٧١، جامع العلوم والحكم: ٤٧٧.
(٣) صفة الصفوة: ٣/١٧١.
(٤) صفة الصفوة: ٣/٢٤٦.

رحمهم الله –لقلة ذنوبهم– عرفوا من أن يؤتون... ونحن لكثرة ذنوبنا لا نحصي... ولا نتذكر..!!

قال **عبد الرحمن بن يزيد بن جابر**: قلت **ليزيد بن مرثد**: مالي أرى عينك لا تجف؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى الله أن ينفعني به، قال: يا أخي إن الله قد توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو لم يتوعدني أن يسجنني إلا في الحمام لكنت حريًا أن لا تجف لي عين، فقلت له: فهكذا أنت في خلواتك؟ قال: وما مسألتك عنه، قلت: عسى الله أن ينفعني به، فقال: والله إن ذلك ليعرض لي حين أسكن إلى أهلي، فيحول بيني وبين ما أريد، وإنه ليوضع الطعام وبين يدي، فيعرض لي، فيحول بيني وبين أكله، حتى تبكي امرأتي ويبكي صبياننا، ما يدرون ما أبكانا[1].

قدم لنفسك في الحياة تزودًا
فلقد تفارقها وأنت مودع

واهتم للسفر القريب فإنه
أنأى من السفر البعيد وأشسع

واجعل تزودك المخافة والتقى
وكأن حتفك من مسائك أسرع[2]

(١) حلية الأولياء: ٥/١٦٤.
(٢) ديوان الإمام علي: ١٢٩.

قال **ابن سيرين**: إذا أراد الله -عز وجل- بعبده خيرًا جعل له واعظًا من قلبه يأمره وينهاه[١].

أخي الحبيب:

خذ من شبابك قبل الموت والهرم

وبادر التوب قبل الفوت والندم

واعلم بأنك مجزيٌ ومرتهن

وراقب الله واحذر زلة القدم[٢]

القلوب التائبة منكسرة بين يدي الله... تسبقها الدمعة... ويحدوها عفو الله وسعة كرمه، وهي قلوب قال عنها **عوف بن عبد الله**: قلب التائب بمنزلة الزجاجة يؤثر فيها جميع ما أصابها، فالموعظة إلى قلوبهم سريعة، وهم إلى الرقة أقرب، فداووا القلوب بالتوبة، فلرب تائب دعته توبته إلى الجنة حتى أوفدته عليها، وجالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى التوابين أقرب[٣].

وقال الفضيل بن عياض: كل حزن يبلى إلا حزن التائب[٤].

التائب[٤].

إلهي لا تعذبني فإني

(١) صفة الصفوة: ٣/٢٤٣.
(٢) ترتيب المدارك: ٢/٤٦١.
(٣) صفة الصفوة: ٣/١٠٤.
(٤) حلية الأولياء: ٨/١٠١.

مقـــــر بالـــــذي قـــــد كـــــان مـــــني
ومــــــالي حيلــــــة إلا رجــــــائي
وعفــــوك إن عفــــوت وحســــن ظــــني
وكـــــم مـــــن زلـــــة لي في الخطايــــا
وأنـــــت علـــــيَّ ذو فضـــــل ومـــــنِّ

يقول ابن الجوزي:

ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه، وإن تاب منها، وبكى عليها، وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة، وكأنهم قد قطعوا على ذلك، وهذا أمر غائب، ثم لو غفرت بقي، الخجل من فعلها.

فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلاً.

وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب أو زاهد، لأنه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة، وما ذكرته يوجب دوام الحذر والخجل(١).

قال **سلمان الفارسي**: إذا أسأت سيئة في سريرة فأحسن حسنة في سريرة، وإذا أسأت سيئة في علانية، فأحسن حسنة في علانية لكي تكون هذه بهذه(٢).

أخي المسلم:

(١) صيد الخاطر: ٥٠٢.
(٢) صفة الصفوة: ١/٥٤٨.

من نعم الله علينا أن طريق التوبة مفتوح... ليس عليه حجاب ولا دونه أبواب.

إنه باب: أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، غافر الذنب، وقابل التوب..

قال **أحمد بن عاصم الأنطاكي**: هذه غنيمة باردة، أصلح ما بقي من عمرك، يغفر لك ما مضى[(١)].

فالحمد لله الذي أمهلنا ومن العيوب سترنا.. وإلى بابه باب التوبة سيرنا..

قـــــدم لنفســـــــك توبـــــة مرجـــــوة

قبـــل الممـــات وقبـــل حـــبس الألســـن[(٢)]

قال **بعض السلف**: كان داود –عليه السلام– بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، فمن قضى له بالتوبة كان كما قال **سعيد بن جبير**: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة، وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينيه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينيه فيستغفر الله ويتوب إليه منها[(٣)].

وقال **مالك بن دينار**: إن البدن إذا سقم لم ينجع فيه: طعام

(١) الزهد للبيهقي: ٢٢٨.

(٢) التذكرة: ٥٣.

(٣) تسلية أهل المصائب: ٢١٨.

ولا شراب، ولا نوم، ولا راحة، وكذلك القلب إذا علقه حب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة[(١)].

أخي:

أقبـــل علـــى صـــلواتك الخمـــس
كـــم مصـــبح وعســـاه لا يمســـي
واســـتقبل اليـــوم الجديـــد بتوبـــة
تمحـــو ذنـــوب صـــحيفة الأمـــس
فلـــيفعلن بوجهـــك الغـــض البلـــى
فعـــل الظـــلام بصـــورة الشـــمس[(٢)]

إذا عزم العبد على السفر إلى الله -تعالى- وإرادته عرضت له الخوادع والقواطع، فينخدع أولاً: بالشهوات، والرياسات والملاذ، والمناكح والملابس، فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه، ابتلي بوطء عقبه، وتقبيل يده، والتوسعة له في المجلس، والإشارة إليه بالدعاء، ورجاء بركته، ونحو ذلك، فإن وقف معه، انقطع به عن الله، وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي: بالكرامات، والكشوفات فإن وقف معها، انقطع بها عن الله وكان حظه، وإن لم يقف معها ابتلي: بالتجريد، والتخلي، ولذة

(١) حلية الأولياء: ٧٦٣/٢.
(٢) أدب الدنيا والدين: ٩٧.

الجمعية، وعزة الوحدة، والفراغ من الدنيا، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود[(١)].

وطريق التائب طريق فيه مشقة، وتحفه المزالق والشهوات، ولكنه يسير إلى رب غفور كريم.

الحسنة عنده بعشرة أمثالها، أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان، إن ربنا لغفور شكور.. بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار، وسماء عطاء لا تقلع عن الغيث بل هي مدرار ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار... إن ربنا لغفور شكور[(٢)].

أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته، التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها إن ربنا لغفور شكور[(٣)].

يا من يجيب دعاء المضطر في الظلم
يا كاشف الضر والبلوى من السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا

---

(١) الفوائد: ٢٢٣.
(٢) عدة الصابرين: ٣٤٠.
(٣) عدة الصابرين: ٣٣٩.

وأنـــت يـــا حـــي يـــا قيـــوم لم تـــنم

هب لي بجودك مـــا أخطـــأت مـــن جـــرم

يـــا مـــن إليـــه أشـــار الخلـــق بـــالكرم

إن كـــان عفـــوك لم يســـبق لمجتـــرم

فمـــن يجـــود علـــى العاصـــين بـــالنعم[(١)]

ألقى الله —سبحانه—العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعداوة بين العقل وبين الهوى، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب، وابتلى العبد بذلك وجمع له بين هؤلاء، وأمد كل حزب بجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالاً[(٢)].

فشمر —أخي الحبيب— عن همتك.. وبادر نفسك.. فإننا كما قال معاذ بن جبل: إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه[(٣)].

تفكـــرت في حشـــري ويـــوم قيـــامتي

وإصـــباح خـــدي في المقـــابر ثاويـــا

فريـــدًا وحيـــدًا بعـــد عـــز ومنعـــة

رمينـــا بجرمـــي والتـــراب وســـاديًا

تفكـــرت في طـــول الحســـاب وعرضـــه

(١) عقود اللؤلؤ: ١٩٧.

(٢) الفوائد: ٧٨.

(٣) الإحياء: ٤/١٩٨.

وذل مقـــامي حـــين أعطـــى حســـابيا

ولكـــن رجـــائي فيـــك ربي وخـــالقي

بأنـــك تعفـــو يـــا إلهـــي خطائيـــا

والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه.. ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع، والخشوع لله والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة، كمن ذاق الجوع والعطش، والمرض والفقر والخوف، ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته، والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه، والحذر أن يقع فيما حصل أولاً ما لم يحصل بدون ذلك[١].

عاد حماد بن سلمة **سفيان الثوري**، فقال سفيان: يا أبا سلمة أترى الله يغفر لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوي، لأخذت محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أبوي.

قال **خالد بن معدان** مهيبًا لاغتنام الفرص واستثمار الأوقات: إذا فتح لأحدكم باب خير، فليسرع إليه، فإنه لا يدري متى يغلق عنه[٢].

إذا هبـــــت رياحـــــك فاغتنمهـــــا

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٥/٥٥.

(٢) حلية الأولياء: ٥/٢١١، السير: ٤/٥٤٠.

فـــــإن لكــــــل خافقـــــة ســــــكون

ولا تغفـــــل عـــــن الإحســـــان فيهـــا

فمــــا تــــدري الســـــكون مــــتى يكـــون

وإن درت نياقــــــــك فاحتلبـــــــــها

فماتـــــدري الفصـــــيل لمــــن يكـــون[1]

قال **يحيى بن معاذ**: لا تستبطئ الإجابة، وقد سددت طريقها بالذنوب[2].

الله يغضــــب إن تركـــت ســـؤاله

وابــــن آدم حــــين يســـأل يغضــــب[3]

يا أرحم الراحمين نرفع أيدي التوبة... ونستغفرك من كل ذنوبنا فنحن من التائبين العائدين.. قلوب تخفق وعيون تدمع.

أســـير الخطايـــا عنـــد بابـــك يقـــرع

يخـــاف ويرجـــو الفضـــل فالفضـــل أوســـع

مقـــر بأثقـــال الـــذنوب ومكثـــر

ويرجـــوك في غفرانهـــا فهـــو يطمـــع

فإنـــك ذو الإحســـان والجـــود والعطـــا

---

(١) أدب الدنيا والدين: ٢٠٢.

(٢) السير: ١٣/١٥.

(٣) عقود اللؤلؤ: ٢٨٣.

لــــك المجـــــد والأفضــــال والمــــن أجمــــع
فكم من قبيح قــد ســترت عــن الــورى
وكـــــم نعـــــم تتــــرى علينــــا وتتبـــــع
ومـــن ذا الـــذي يرجـــى ســـواك ويتقـــى
وأنــت إلــه الخلــق مــا شــئت تصــنع؟[1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة، فأما ما حصل منه توبة، فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة، كما قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة أحسن منه حالاً قبل الخطيئة، ولو كانت التوبة من الكفر والكبائر، فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم خيار الخليقة بعد الأنبياء، وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب، ولم يكن ما تقدم قبل التوبة نقصًا ولا عيبًا، بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيمانًا، وأقوى عبادة وطاعة ممن جاء بعدهم، فلم يعرف الجاهلية كما عرفوها[2].

والمؤمن إذا فعل سيئة فإن **عقوبتها تندفع بعشرة أسباب:**

أحدها: أن يتوب توبة نصوحًا ليتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الثاني: أن يستغفر الله فيغفر الله تعالى له.

(١) موارد الظمآن: ١/٥٤٧.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/٥٣.

الثالث: أن يعمل حسنات يمحوها لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾.

الرابع: أن يدعو له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حيًا وميتًا.

الخامس: أن يهدي له إخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

السادس: أن يشفع فيه نبينا محمد ﷺ.

السابع: أن يبتليه الله في الدنيا بمصائب في نفسه وماله وأولاده وأقاربه ومن يحب ونحو ذلك.

الثامن: أن يبتليه في البرزخ بالفتنة والضغطة وهي عصر القبر، فيكفِّر بها عنه.

التاسع: أن يبتليه الله في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفِّر عنه.

العاشر: أن يرحمه أرحم الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة، فلا يلومن إلا نفسه، كما قال تعالى في الأحاديث الإلهيات: «**إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»[1].

يـــا أهـــل لـــذة لهـــو لا تـــدوم لهـــم

(١) تسلية أهل المصائب: ٢١٨.

إن المنايـــــا تبيـــــد اللـــــهو واللعـــــب

كـــم مـــن رأينـــاه مســـرورًا بلذتـــه

أمســـى فريـــدًا مـــن الأهلـــين مغتربًـــا[١]

قال **يحيى بن معاذ**: مسكين ابن آدم، قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار[٢].

أخي الحبيب: الأيام تمر والساعات تسير، ونحن في رحلة إلى الدار الآخرة قد بدأت، فوقتك هو رأس مالك، فإضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

كيف -يا أخي- يكون عاقلاً من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة؟[٣].

أخي الحبيب:

فياليـــت أن الله يغفـــر مـــا مضـــى

ويـــأذن في توباتنـــا فنتـــوب[٤]

أخي المسلم:

وأنت في طريق التوبة تلمس علامات صحة التوبة **في أمور خمسة:**

(١) شرح الصدور: ٢١٧.

(٢) السير: ١٣/١٥.

(٣) الفوائد: ٤٥.

(٤) موارد الظمآن: ٢/٩٤.

أولاً: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

ثانيًا: أن لا يزال الخوف مصاحبًا له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع البشرى تأتيه: ﴿**أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [فصلت: ٣٠].

ثالثًا: انخلاع قلبه، وتقطعه، ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الذنب.

رابعًا: انكسار وذل، وخضوع بين يدي الله.

خامسًا: الازدياد في الأعمال الصالحة والمداومة عليها.

قال **يحيى بن معاذ**: للتائبين فخر لا يعادله فخر، فرح الله بتوبتهم.

أخي الحبيب:

حان وقت التوبة والرجوع... والإيمان والخشوع والندم والدموع فاسكب العبرات، وادع رب الأرض والسموات..

ولمـــا قســـا قلـــبي وضـــاقت مـــذاهبي

جعلـــت رجـــائي نحـــو بابـــك ســـلما

تعـــاظمني ذنـــبي فلمـــا قرنتـــه

بعفـــوك ربي كـــان عفـــوك أعظمـــا

الخاتمة

ختم الكتاب بباب في سعة رحمه الله -تعالى- على سبيل التفاؤل بذلك.

فقد كان رسول الله ﷺ يحب الفأل وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة، فنقتدي برسول الله ﷺ في التفاؤل، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله -تعالى- فقد قال الله -تعالى-: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾، وقال -تعالى-: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾، ونحن نستغفر الله -تعالى- من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره، ونستغفره من كل وعد وعدنا به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينًا للناس بها[1].

---

(١) الإحياء: ٥٧٨/١.

أخي الحبيب:

جعلني الله وإياك من أهل التوبة والعودة والرجوع والأوبة..

وجمعني وإياك ووالدينا وأحبابنا في جنات عدن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

المصادر

(١) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي – دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي – دار الكتب العلمية.

(٣) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير – مطبعة المتوسط.

(٤) بستان العارفين للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، تحقيق محمد الحجار.

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي – دار الكتب العلمية.

(٦) التبصرة، لابن الجوزي –دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ.

(٧) تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

(٨) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي، دار الرياض، ط ١٤٠٧هـ.

(٩) التذكرة في الاستعداد لليوم الآخر، علي صالح الهزاع ط٢، ١٤٠٧هـ.

(١٠) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك للقاضي عياض مكتبة الحياة.

(١١) تزكية النفوس، جمع د. أحمد مزيد، دار القلم، بيروت.

(١٢) تسلية أهل المصائب لأبي عبد الله محمد بن محمد النبجي، دار الكتب العلمية، ص١، ١٤٠٦هـ.

(١٣) جامع العلوم والحكم- ابن رجب الحنبلي ط٥- ١٤٠٠هـ.
(١٤) جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى لأبي يحيى محمد بن عاص الغرناطي- تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير، ١٤١٠هـ.
(١٥) الجواب الكافي لابن قيم الجوزية – تحقيق أبي حذيفة- دار الكتاب العربي ط١-١٤٠٧هـ.
(١٦) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم – دار الكتاب العربي.
(١٧) الحسن البصري لابن الجوزي.
(١٨) ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.
(١٩) ديوان الإمام الشافعي –دار الجيل- بيروت ط٣ ١٣٩٢ هـ.
(٢٠) كتاب الزهد الكبير، للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق. تقي الدين الندوي، دار القلم، ط٢، ١٤٠٣هـ.
(٢١) كتاب الزهد للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.
(٢٢) الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد بن يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.

(٢٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

(٢٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي- دار إحياء التراث العربي.

(٢٥) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

(٢٦) صفة الصفوة لابن الجوزي- تحقيق محمد فاخوري ومحمد رواس- دار المعرفة- ١٤٠٥هـ.

(٢٧) صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ.

(٢٨) طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية.

(٢٩) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، دار إحياء الكتب العربية.

(٣٠) العاقبة في ذكر الموت والآخرة للإمام أبي محمد عبد الحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى ط١، ١٤٠٦هـ.

(٣١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عثمان، دار الكتاب العربي ط٢، ١٤٠٦هـ.

(٣٢) عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

(٣٣) مجموع فتاوى ابن تيمية جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، تصوير ط١، ١٣٩٨هـ.
(٣٤) الفوائد لابن القيم — دار النفائس.
(٣٥) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية ط٢، ١٤٠٨هـ.
(٣٦) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية- مكتبة الرياض الحديثة.
(٣٧) مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ.
(٣٨) منهاج القاصدين، لابن الجوزي.
(٣٩) موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز السلمان، ط١٣، ١٤٠٣هـ.
(٤٠) واحات الإيمان لعبد الحميد البلالي، دار الدعوة ط٤، ١٤٠٩هـ.
(٤١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ.

فهرس الموضوعات

مدخل.. ٢
المقدمة ٣
بسم الله الرحمن الرحيم ٥
أضرار الذنوب ٣٩
نُصح المذنب.. ٤٤
نماذج من المحافظة على الأعمار ٤٧
صور من التوبة ٥٨
الخاتمة ٨٣
المصادر.. ٨٥
فهرس الموضوعات.. ٨٩